

بداية الكتاب السابع

كان قطار الأمتعة لا يزال يعبر المر على مقربة ، لأنه كلما كان أكثر تجمعا ، كلما تباطأ في العبور ، وما أن وصل الملك اليه ماشيا حتى ضمن لنفسه مطية ، ورافق الرجال في الظلام ، الذي كان قد حل فعلا ، وقابله في ذلك الحين أفراد كتيبة الفرسان من المعسكر ، فهمموا مستنكرين عندما رأوه وحيدا بلغ به الجهد مداه ، وكوى الأسي قلوبهم ، لفقدان الحرس الملكي ، الذي كان يبلغ تعداده زهاء أربعين فارسا ، أذكر منهم : « كونت وارين وأخوه افرارد صاحب ثبريتويل (١٩١) ، وماانديس صاحب بولليس (١٩٢) ، وغوتيير صاحب مونتجي (١٩٣) ، وآخرون (١٩٤) ، وهذا على سبيل ذكر البعض ، وليس الحصر للجميع ، اذ لاجابة بي الى سرد جميع الأسماء» ولقد كان الفرنجة كثيروا العدد يتسمون بالشجاعة ، لكن الوقت كان ليلا ، وكان العدو يتربص بالجانب الآخر من الوادي السحيق ، وهكذا لم يكن لا الزمان ولا المكان مناسبين للفرنجة كي يتابعوا تقدمهم ، وقد وصلوا الى المعسكر مع الملك في وقت متأخر من الليل ، وشعر الناس الذين كانوا هناك بالراحة ، لأن الملك كان في أمان ، بعد ان كان الهلع قد نال من قلوبهم التي اكتسوت حزنا ، ولم ينم في تلك الليلة أحد لأن كل واحد كان إما ينتظر أصدقاءه الذين لم يأتوا أبدا ، أو يرحب بسرور بمن نجا ، بصرف النظر عن الخسائر المادية التي تكبدوها ، وقرقرار الجميع على وجوب شنق جيوفري ، لأنه لم يتقيد بالأوامر حول خطة يوم الزحف ، ولعل عم الملك ، الذي شارك في الجريمة ، قد أعفى جيوفري من العقاب ، لأنه بما أن كل من الاثنين كانا متهمين ، وبما أن عم الملك كان سينجو من العقاب ، لذا كان لايجوز ادانة أحدهما دون ادانة الآخر (١٩٥)

وحل فجر اليوم التالي دون ان يزول الحزن ، الذي كان يخيم على الجميع ، كما أصبح جيش العدو على مرمى النظر ، وشوهد منتشرا في الجبال غنيا وسعيدا ، وعندها وبينما كان رجالنا ينوحون على رفاقهم ومقتنياتهم ، ويدركون أن الوقت قد فات دفعوا عنهم شبح اللا اكرثا ، وتقدموا بنظام لكي يذقدوا ماتبقى في حوزتهم ، وحيث ان ملكنا لم يستطع تحمل حقيقة ان اشرافه قد سلبوا قواهم ، ولأن قلبه الورع دفعه ان ينظر بعين الاعتبار الى اولئك الذين كاذوا اقل شأننا منهم ، فقد بدد رغبات كلتا الطبقتين بمنتهى الكرم ، وكأنه قد نسي ما حل به ، فبدأ وكأنه ما شارك في خسارتهم ابدا ، واخذ الجوع ينهك قوى الخيول التي كانت حتى ذلك الحين قد عاشت اياما عديدة على ما اقتاتته من رعيها للقليل من الاعشاب ، ولم تذق طعم الحبوب ، كما أنه لم يعد هناك طعام للرجال الذين كان ينبغي عليهم أن يزحفوا لاثني عشر يوما آخر ، واخذ العدو كالحيوان المفترس ، الذي يتوحش بعد أن يذوق طعم الدم ، ويشدد هجماته علينا ، خاصة عندما أصبح على علم بضعفنا ، وازداد شرهه بعد ان أخذ يكسب من انهاك قوانا .

ووقف في وجه التركمان فرسان (المعبد) الداوية مع مقدمهم اللورد ايفراد كونت برس الذي يستحق التبجيل لتدينه ، فهو قد ضرب للجيش مثلا مشرفا ، وانقذ الداوية ممتلكاتهم الخاصة بحكمة وبتأهب ، كما حموا ممتلكات الناس الآخرين بكل ما أوتوا من شجاعة ، وعندها أعجب الملك بالمثل الذي ضربوه ، وود أن يحذو حذوه ، كما أنه رغب في أن يتأثر الجيش بذلك الاتجاه ، لأنه أدرك أنه وإن أنهكهم الجوع الشديد ، فإن روح الوحدة ستقويهم حتى في أشد حالاتهم ضعفا ، وبناء على ذلك فقد تم اتخاذ القرار التالي ، وذلك بموافقة من الجميع : إنه يجب على الجميع في مثل هذه الفترة الخطيرة أن يتآخوا مع فرسان الداوية ، وأقسم الأغنياء والفقراء اليمين بالألا يفروا من ساحة المعركة ، وأنهم سيؤدون الطاعة للقادة

في جميع الميادين التي تحدد لهم من قبل الداوية ، وبناء على ذلك عهد بقيادتهم إلى قائد يدعى جلبرت ، وعين عددا من المساعدين عهد لكل واحد منهم بقيادة خمسين فارسا ، وبما أن التركمان كانوا سريعي الفر طلب من رجالنا التحلي بالصبر والتحمل إلى أن يتلقوا الأمر بالهجوم على الأعداء ، وأن يقوموا بالانسحاب حينما يطلب إليهم ذلك ، حتى ولو كانوا في الموقف الذي طلب منهم أن يحققوه أصلا ، وما أن علموا بذلك ، ودرّبوا أيضا على نظام الزحف ، بحيث لا يندفع واحد منهم من المقدمة إلى المؤخرة (١٩٦) ، وألا تدب الفوضى بين صفوف الحرس على اليمين واليسرة ، وأكثر من ذلك فإن أولئك الذين جعلت الطبيعة ، أو جعل الحظ منهم جند مشاة (لأنهم فقدوا عتادهم ، أو باعوه ، حيث أن العديد من الأشراف كانوا يسيرون مع الحشد بطريقة غير عادية بالنسبة لهم) أودعوا في المؤخرة لكي يتصدوا لسهام الأعداء بأقواسهم ، ومع ان الملك كان سيد القوانين (١٩٧) ، فإنه رغب هو الآخر في ان يخضع أيضا لتلك القوانين ، انما ما من واحد تجرأ على ان يفرض اي امر عليه ، باستثناء وجوب الإبقاء على خط المعركة الكامل ، وان يقوم بتقوية الضعفاء بإرسال التعزيزات اليهم من مجموعته.

وتقدمنا وفق هذا الترتيب ، وبعد أن انحدرتنا عبر الجبال سررنا لوصولنا إلى مستوى الأرض ، وبما أننا كنا محاطين بحماتنا فقد تحملنا هجمات الأعداء الجريئة دون أن نتكبد أية خسارة ، وكان على تلك الطريق نهران تفصل بينهما مسافة ميل واحد ، وجعل الوحل العميق على ضفافهما أمر العبور عسيرا ، وبعد أن عبر النهر الأول ، انتظرنا فرسان المؤخرة ، وسحبنا خيول التموين الضعيفة من الوحل بأيدينا ، وعبر كذلك فرسان المؤخرة مع جنود المشاة الذين كانوا تقريبا مختلطين بالأعداء ، ولم يتكبدوا هم الآخرون أية خسائر لأنهم كانوا محميين باتفاقية المساعدة المتبادلة ، واتجهنا نحو النهر الثاني على نية المرور بين شعبين جبليين يمكننا من قمتيهما رمي حشود التركمان أثناء اقترابها ، وتسارع التركمان من

كلا الجانبين نحو الشعبين ، غير أن فرساننا استولوا على واحد منهما قبلهم ، وهنا تمكن التركمان من تسلق الشعب الآخر ، ورموا بشعورهم على الأرض ، وقد فعلوا ذلك - كما أخبرنا - بمثابة اشارة منهم ، على أنه لا يمكن زحزحتهم من هذه النقطة مهما بلغت المخاوف ، على أن تلك الاشارة من جانبهم قد كانت إما كاذبة ، أو أنها لا تعني شيئاً البتة ، لأن مجموعة من جنودنا المشاة قد تبعتهم على الفور ، وبينما كانوا يتصارعون من أجل قمة ذلك الشعب الجبلي ، اعتقد الفرسان ، بأنه من الممكن قطع طريق العودة على التركمان فيما بين النهرين ، لذلك عندما أعطي الأمر من قبل القائد قام الجميع دفعة واحدة بمهاجمة التركمان على الفور ، وقتلوا من استطاعوا قتله ، وبذلك انتقموا لرفاقهم ولخسائرهم التي كانت قد أوقعت بهم هم أنفسهم ، وعند وصولهم إلى الوحل لقي العديد من التركمان حتفهم ، ودفنوا في المكان الذي يليق بطبيعتهم النتنة ، وبينما كنا نتابع هجومنا العنيف ، وتقدمنا الطويل ، قضينا على أولئك الهاربين ، وخف جوع كل منا ، وأصبح يومه أكثر أشراقاً .

ومهما يكن من أمر فإن التركمان وجماعات الاغريق كانوا يخطون للقضاء علينا بمختلف الطرق ، لأنهم على الرغم من أنهم كانوا فيما مضى أعداء فيما بينهم ، عقدوا الآن اتفاقاً من أجل هذه الغاية ، وهكذا نجد أنه بتجميعهم لقطعان الماشية والأبقار من كل مكان ، وبالسماح لها بالرعي أمامنا قضوا على المنتجات التي لم يتمكنوا من حرقها ، ولهذا السبب خلفنا بعض خيولنا على الطريق إما منهكة أو ميتة ، وتركنا معها حمولتها من خيم وملابس وأسلحة ، بالإضافة إلى العديد من الأشياء الأخرى التي قام رجالنا بإحراقها باستثناء ما حملة الفقراء للحيلولة دون وقوع شيء في أيدي الأعداء ، وأقدمنا على ذبح بعض الخيول ، وأكل الجيش الكثير من لحمها ، واحتفظ ببعضها ، وهكذا فإن الخيول التي لم تكن مناسبة لقافلة النقل خففت من حدة جوعنا ، وبهذا اللحم مع الخبز الذي تم تحضيره على رماد نيران المعسكر ، شبع حتى الأثرياء ، وخمد

واعادتها منها ، ولما رأى الملك بأن الخيول المتبقية ، وهي قليلة ، كانت تموت جوعا ، ولم تحصل على الراحة التي تحتاجها ، وأنه ليست هناك خيول للابتياح في المدينة ، دعا رجاله الباززين من باروناته ، وتحدث إليهم عن الرحيل قائلا : « لا يتمتع الفرسان بفرصة الراحة في مكان تموت فيه خيولهم جوعا ، فالتائب يجب أن يقمع رغبته للراحة ، والرجل الورع يجب أن يسرع لتحقيق الغاية التي يتعهد بها ، رغم تعبته ومرضه ، وإنه يليق بكل منهما أن يتوج شهيدا لأن الرب قرر أخذ أرواحهم إليه في مثل هذا العناء .

لكن على الرغم من احتفاظهم بالطاعة لسيدهم ، وتمسكهم بمراعاة رغبته على قدر الامكان ، قال البارونات : « تماما كما يأمر الملك ما ينطوي على الشجاعة ، لكن ينبغي على الفارس الحكيم ان يحاول ما هو ممكن فقط ، وبما انهم كانوا قد اقوا سلاحهم ، فإن جميع الفرسان في جيشكم قد خفض وضعهم الى جنود مشاة في هذه الايام ، كذلك حدث المصير ذاته للعبيد من الاشراف ، ومن بين هؤلاء نجد فارسا لا يستطيع شراء الخيول ، لأنه خسر ممتلكاته أو باعها ، وآخر لا يجد خيولا للبيع ، وقد علموا من السكان المحليين بأن الرحلة إلى انطاكية تستغرق ثلاثة ايام قصيرة بتموين جيد عبر البحر ، وهي رحلة ايام مأمونة من مرفأ لأخر ، في حين أنها تستغرق أربعين يوما برا ، وتعرضها العراقل ، ومواجهة الأعداء ، والقحط الدائم ، لذلك فإنهم يرغبون في ركوب البحر كما يفعل جند المشاة الذين انعدمت شجاعتهم بسبب التعب ، وانعدام المال والطعام ، ويعد الأغر يق بأنهم سيجمعون اسطولا ضخما من جميع القرى المجاورة والجزر القريبة ، ومهما يكن من أمر فإننا نرغب في أن نعيش ونموت معكم ، وإننا نوافق بكل سرور على الطريق الذي تفضلونه » .

وأجابهم الملك بطريقته الملكية الخاصة قائلا : « بما أنني سأكون غنيا ، فما من رجل مجرب الشجاعة ، ممن تحمل معي الفقر بصبر

وقت الحاجة الشديدة ، سيكون بحاجة بعد الآن ، ولهذا قوموا بتمييز هؤلاء الرجال عن سواهم ، لأقوم بتسليحهم وتنزويدهم بالعتاد مما لدي ، ثم دعونا نعهد للأسطول أمر الحشد الأعزل ، الذي كان دائما قد سبب لنا الأذى ، والذي جعل الطعام دائما غالي الثمن ، والزحف أبطأ ، ودعونا نتبع الطريق الذي سار عليه أبائنا الذين جعلهم حماسهم الذي لا مثيل له ، يحققون السيادة على الأرض والمجد في السماء» (٢٠٢) .

وأجابوه على أقواله هذه قائلين : « نحن لا نريد ، كما لا نستطيع التقليل من مجد آبائنا ، غير أن الأحداث سارت على نحو أيسر بالنسبة لهم ، مما عليه الأمر بالنسبة لنا ، لأنهم عندما كانوا قد مروا في القسطنطينية ، وعبروا الذراع واجهوا التركمان على الفور ، ودخلوا إلى أراضيهم تماما كما كانوا قد رغبوا ، وبينما كانوا يحافظون على خفتهم ونشاطهم بممارسة الأعمال الحربية ، استطاعوا أن يبقوا أنفسهم أغنياء عن طريق الاستيلاء على المدن ، والحصون ، وأما نحن ففضلا عن مواجهتنا للتركمان قابلنا الأوغاد من الأغرير الذين لسوء طالعنا كنا قد صفحنا عنهم ، وأبقينا عليهم كما لو كانوا مسيحيين ، هذا ولقد هد الخمول حيلنا ، وأنهكنا التعب والمقت ، لذا صرفنا تقريبا كل ثروتنا ، وبإحساس جنوني بالأمن ، أو من مرارة الفقر ، كان البعض منا قد باعوا أسلحتهم ، أو تخلوا عنها بعد موت خيولهم ، وللأسباب الألفه الذكر ، فإن الطريق التي تأمرنا أن نسلكها ليست آمنة ، رغم أنها مشرفة ، والآن إننا بصرف النظر عن الخوف والمصاعب سنتابع طريقنا إذا ما وجدنا الخيول التي نعيد تجهيز الفرسان بها .»

وتم السعي من أجل توفير الخيول ، لكنها لم تكن تكفي ، لقلّة عددها ولضعفها ، فقد أجبر البارونات الملك على المغامرة البحرية طوعا او كرها (٢٠٣) ، نرجوا ان يمن علينا الرب بالصبر كما من على القديس بولس ، فقد كتب علينا ان نمتحن « بأخطار في

الامم . بأخطار في البرية . بأخطار من أخوة كذبية ، (٢٠٤) ، وعندئذ تمت استشارة قيادة المدينة ومبعوث الامبراطور حول هذه المهمة ، فأجابا بالاستجابة للتعهد ، ووعدا بوصول المراكب للجيش بكامله على الفور ، وفي الوقت ذاته حل الشتاء والطقس الرديء ، وأمطرت السماء ، وأثلجت وأبرقت وأرعدت ، وانحجبت الريح التي كنا قد أملنا في أن يمن الرب علينا بها ، ولم تهب حتى الاسبوع الخامس ، وحدث الشيء ذاته بالنسبة للمراكب التي كنا ننتظرها بناء على وعد الاغريق ، والآن وبعد أن أدرك الاغريق بأن الوقت المتوفر تحت تصرفهم كان قصيرا ، لم يتركوا عملا شريرا الا وقاموا به ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، فقد قاموا بسرقة بضائعنا في السوق ، وحاولوا حرماننا من الحياة ، وقد وجد الأصحاء والمرضى ما سمحت أحوالهم بطلبه وتمنيه ، غير أن السعر الباهظ أحل الاسى في قلوبهم ، فقد كانوا يحصلون على الدجاجة لقاء عشر سويلدات ، والبيضة الواحدة لقاء خمسة أو ستة ديناري ، كما كنا ندفع ثمن البصلة الواحدة أو رأس الثوم خمسة أو ستة ديناري وجعل السعر يتواعم مع الحجم إذ بلغت حبتا البندق ديناري واحدة ، كما قايض أولئك الذين كانوا لديهم حصان أو بغل على الخبز ، أو باعوه في سوق اللحوم كما ولو كانت خيولهم أبقارا ، لأنه كان علينا أن نبيع بين الاغريق بدون ربح ، وأن نشترى بسعر مرتفع للغاية .

وعلم التركمان من الاغريق بأنه لدى فرساننا خيول ، ولذلك استغلوا هذه الضمانة وهذا الأمان ، وأعدوا العدة لمهاجمة الجيش بكامل قوتهم ، وقد أحيط الملك علما بذلك ، فتحرك بسرعة ، وزحف ضد التركمان مصطحبا معه الكهنة والفرسان الذين كانوا ما يزالون يحتفظون بمطاياهم رغم جوعهم ، وظهروا فجأة أمام التركمان ، وحمل عليهم ، قاتلا بعضهم ، ومجبرا البقية على الرجوع ، وعبور النهر ثانية نون جسر ، وهكذا أجبرهم على الاعتقاد منذ ذلك الحين فصاعدا ، بأن لدى جيشه العديد من الخيول

الممتازة ، وفي الوقت ذاته حمل الاغريق المراكب بأسعار تفوق كل تصور ، إنما والحق يقال مطابقة لأسعار حاجياتهم الأخرى ، فقد دفع كل واحد من الرجال أربعة ماركات للعبور الى انطاكية ، حيث كنا سنصل في اليوم الثالث كما قال الاغريق ، وأحضرت هذه المراكب القليلة الفقيرة ، وقدمت الى الملك كما لو أنها هبة مجانية ، من قبل القائد ومبعوث الامبراطور ، فوزعت من قبله فيما بين الاساقفة والبارونات ، وعلى الرغم من رفضه للسعر الباهظ وشعوره بالخبن ، غير أنه كان يريد المراكب ، لذلك أخفى امتعاضه الذي لاجدوى منه - في خضم الصمت - وسعى للحصول على المراكب التي وعد بها ، من أجل بقية الجيش (٢٠٥) ، ولكن في حين كان الاغنياء ينتظرون الفقراء تأخر الاغريق وقتا طويلا ، وبمثل هذه النذالة سلبوا كلتا الطبقتين من ممتلكاتهما (٢٠٦) ، وانني اعتقد حقا بأننا دفعنا ، بسبب تأخيرنا في هذه المدينة ، ثمنا أغلى مما دفعناه بسبب كافة الصعوبات التي واجهتنا في رحلتنا بأكملها.

إن الذين يجهلون هذه الامور سيقولون كان ينبغي علينا احتلال هذه المدينة ، والانتقام من سكانها لما قاموا به من أعمال السلب ، لكن ليتذكر هؤلاء أنه لم يكن لدينا طعام ، وأتينا كنا محاصرين من اليمين واليسار من قبل الأعداء ، ومن الداخل والخارج ، وأنه كان من المستحيل تدمير الأبراج المنفردة ، أو تقويض الأسوار المزدوجة بسرعة بدون آلات الحصار والمنجنيقات ، ولقد كان بالإمكان القاء القبض على شحنة المدينة وعلى مبعوث الامبراطور عندما كانا يأتیان لمقابلة الملك ، بيد أن سكان المدينة ماكانوا ليتخلون عن المدينة من أجل انقاذ هذين الاثنين من الشنق ، كما أن الملك رأى أنه من الغدر بمكان أن تحاصر المدينة بالخدعة ، وأن ذلك مثير للاشمئزاز ، كما ويتعارض مع مثله ، أن يقدم على تعريض الجميع للمخاطر دون التمكن من الاستيلاء عليها (٢٠٧) ، ليغفر الرب للإمبراطور الالمانى ذلك ان رغبتنا في تجنب حظه العاثر ، ثم استماعنا لنصيحته التي تنقصها الخبرة ،

واتباعها هو الذي اوقعنا في هذه المأزق الشيطانية (٢٠٨) ، لكن كيف لحكم عدل ربا كان ام انسانا ان يصفح عن امبراطور الاغريق الذي قتل العديد من المسيحيين بالكر والخداع ، وذلك في كل من الجيشين الالمانى والفرنجي (٢٠٩) .

وهكذا عندما علم حشد الايتام الجدد ، المسالوبين من اموالهم ، والذين هدم المرض ، بأن الاغريق قد كذبوا بشأن المراكب ، تقدموا نحو الملك ، وابدوا رغبتهم ، واعلنوا له عن فقرهم بالكلمات التالية مع غيرها: « حضرنا امام جلالتكم يامولانا مرتبكين ، لكننا تجرانا على القدوم لاننا وضعنا ثقتنا بطبيكم ، فنحن عندما لم نرغب في المسير معكم على الارض ، كنا قد وضعنا ثقتنا بالاغريق ، كما كنا كسالى ومضللين ، وحيث اننا نشعر الآن بمرارة الحرمان ، فاننا نرغب بالمسير بدون قائدنا ، اننا سندفع لذقابل الموت ، لكن اذا شاء الرب ان نبقى فاننا سنتحاشى الموت الذي يحيق بنا ، ولعله من الاسهل علينا ان نتحمل سيف التركمان ، من ان نستمر في تحمل غدر هؤلاء الناس من السكان المحليين ، بعد رحيلكم.

واشفق الملك ، بتعاطفه المعتاد ، واغدق عليهم كرمه الى درجة يظن المرء معها انه لم يسبق له ان انفق شيئا من قبل ، او انه انفق الى حد انه لم يابه بحاجة بيته ، ولما كان يريد الامان لرعاياه في رحلتهم ، فقد عقد اتفاقا مع الشحنة ومبعوث الامبراطور فيه انهما سيتلقيان منه خمسمائة مارك مقابل قيادة رجاله الى ما وراء النهرين القريبين ضمن جيش قادر على حمايتهم ثم توصيلهم بامان وحماية الى طرسوس ، وان يسمح للضعفاء والعجز بالدخول الى المدينة ، والمكوث بها حتى يتعافون ويتوفر طريق يمكنهم اللحاق به ، وعندئذ قام الضباط الاغريق ، الذين كانوا شريين للمال ، وكانوا يخشون التركمان ، قاموا بالاجتماع مع التركمان اولا - كما ظننا في ذلك الوقت - واقتسموا الاموال معهم ، وعند عودتهم اقساموا اليمين هم ومعهم بعض الاثرياء من اهل المدينة ، والذين احضروهم

معهم ، على الاتفاقية المذكورة آنفا ، وقد تم دفع الأموال ، وامر الاغريق العجز بدخول المدينة ، وان يعد بقية الرجال انفسهم للرحلة في اليوم التالي ، واطافة لذلك قام الملك بجمع الخيول التي استطاع ان يجدها ، واعطاها للفرسان الذين ثبتت شجاعتهم ، وبما انه كان يخشى وجود الخديعة حيث كان قد خبرها ، خلاف وراءه كونت فلاندرز ورئيس اساقفة بوربون ، الى ان يكون الناس قد رحلوا ، وصعد ظهر مركبه مصحوبا بدعوات وصدوات اولئك الذين ظلوا في الخلف (٢١٠) .

وفي اليوم الثاني ، وبينما كان جيش المشاة ينتظر ادلاء ومرشديه ، تحرك التركمان ، الذين كانوا قد ابلغوا برحيل الملك من قبل الاغريق على الفور ، وانقضوا على جيشنا وكأنه فريسة ، وصف كونت فلاندرز ورئيس اساقفة بوربون العساكر واعدوهم للمعركة ، وابدى الرجال في تلك المعركة شجاعة ، لكن حركتهم كانت بطيئة لانه لم يكن لديهم الا بضعة خيول هزيلة ، فاندفعوا لمواجهة اعدائهم ، واشتبكوا معهم ، ففر هؤلاء الذين كانوا قد اتوا بقصد السلب فقط ، ولما لم يكن هناك اي رجل كان قادر على تتبعهم بسرعة ، فقد قتل من العدو عدد قليل فقط ، وطالب الفرنجة بعد هذه الحادثة بأن يقوم شحنة المدينة ومبعوث الامبراطور والسكان المحليين بتطبيق الاتفاقية التي كانوا قد اقساموا اليمين للملك بانهم سيرا عونها ، وعندئذ للمرة الاولى وجد الاغريق انفسهم امام استحالة تطبيق الاتفاقية ، متذرعين بالتركمان والشتاء كاسباب وراء ذلك ، واضاع الفرنج في هذه المناقشات بضعة ايام والكثير من الكلام ، ولم يتمكنوا من التغلب على الاغريق حتى عن طريق استرضاء حسهم بالعدالة والمنطق والشرف ، وفي نهاية الامر ، وبعد ان انتهى النزاع حول الحماية على الطريق سمح الاغريق بصعوبة بالغة لرجالنا بالتمركز داخل اسوار الحصن ، وبسوق يتسوقون منه الى ان يتمكنوا من الابحار ، وعندما وصل الاسطول اشرع نواب الملك على متن المراكب يندبون عدم قدرتهم على الانتقام للإساءات التي ارتكبت في حقهم (٢١١)

وهكذا اقترب التركمان من المدينة ، فدخلوا وخرجوا واتصلوا مع الاغريق بشكل علني ، ووجدوا اعداءهم محاصرين مشدد الاطباق عليهم بين الاعداء والجدران ، وذلك كقطع غنم في حظيرة وتأكدوا انهم حيث لم يكونوا يجروون على الدخول او الخروج ، كان من السهل القضاء عليهم بالسهم ، وكان السور منخفضا ومنحنيا ، وكان مثل هذا الحشد الكبير من الناس لا يمكن ان يحقق الحماية الكاملة لذفسه باللجوء اليه ، لذلك فقد كان البعيدين منهم عرضة للإصابة بالجروح ، وعليه قام التركمان برمي سهامهم من نقاط وفرت لهم مزايا وجرحوا او قتلوا بعض الناس ، وامام ذلك بدأ الشباب بحمل قسيهم وبالقفز عن السور ، وبذلك كانوا يتمكنون اما من الحفاظ على حياتهم وحياة رفاقهم ، او يبيعون حياتهم بثمن باهظ جدا ، وهكذا بمساعدهم هذا للأمان ارغموا بشدة متناهية الاعداء على الانسحاب الى مسافة ابعد ، ولقد كان بوسعهم تحقيق الامن وجلبه ، غير ان الاغريق الذين كانوا

يشددون الحصار على الناس المتبقين في مكان ضيق غير نظيف قتلوهم دون ان يقع بين صفوفهم جرح واحد ، وبما ان البعض كانوا يعانون من مرارة الجوع بسبب عدم توفر المال لبيهم ، وحيث ان المرض انهك الآخرين ، فقد لقي العديد حتفهم من جراء تأثير الجثث التي كانت ملقاة هنا وهناك ، وفي حين لم يتكبد الاغريق خسائر في الأرواح ، بل اوقعوها بالفرنجة ، ولهذا مات فريقان من العساكر عددهما ثلاثة او اربعة الاف من الرجال كيما يتحاشوا الموت ، ذلك انهم اعتقدوا بأن العيش داخل المدينة يعادل الموت خارجها ، ولهذا تقدموا بعد ان حملوا سلاحهم ، بقصد عبور النهر الاول بسهولة ، غير انهم توقفوا على الثاني امام عقبة مزدوجة ، لانهم كانوا يستطيعون العبور سباحة فقط ، وبما كانهم التسال بين صفوف العدو المنتشر هناك اذا حاربوا وشقوا طريقهم بينه ، ولكنه لم يكن بوسعهم تحقيق الامرين في الآن ذاته ، ولهذا السبب فقد انعطفوا عائدين فأنزلت بهم هزيمة ساحقة ، قتل فيها من قتل ووقع الباقي بالاسر .

وبدم اولئك روى التركمان تعطشهم ، وتحول غدر الاغريق الى عذف ، لان التركمان عادوا ليروا من نجا منهم ، واغدقوا الكرم على المرضى والفقراء ، لكن الاغريق ارغموا الاقوياء من الفرنجة على القيام بخدمتهم ، كما قاموا بضربهم لتحصيل المال منهم ، واشترى بعض التركمان ذقوبنا من حلفائهم ووزعوها على الفقراء بيد حرة ، بيد أن الاغريق قاموا بسلب ما تبقى ، ولذلك فقد مضى الفرنجة بأمان بين « غير مؤمنين » متجنبيين ابناء بينهم» الذين كانوا في غاية القسوة معهم ، وقد قيل لنا بأن اكثر من ثلاثة آلاف شاب قد ذهبوا مع التركمان ، عندما رحل هؤلاء المذكورون اخيرا ، وبالإشفاق لقد كان ذلك اكثر قسوة من اية خيانة ، لأنهم كانوا يأخذون الايمان لقاء تقديم الخبز) على الرغم من انه من المؤكد بأن قناعة التركمان بالخدمة التي كسبوها لم يجبر اي واحد على نكران ايمانه) والآن انزل الرب اللعنة على مدينة انطالية ، واذاق اهلها الموت المفاجيء ، فلقد كانت هناك بيوت عديدة قائمة مهجورة ، في حين من لم يمت من اهلها بقي مذهولا مرعوبا ، وخططوا لمغادرتها جميعا. (٢١٢) ، وجرى الامبراطور المدينة من الفضة والذهب معارضا حكم الرب ، لأنها كانت قد اعدت اسطولا وسوقا للملك ، لذلك فان رايه كان يتعارض مع مشيئة الرب ، غير ان كلا الاثنين قد انزلا العقاب بالمدينة.

وبعدما كان الملك قد قضى خمسة اسابيع في هذه المدينة ، فانه قضى ثلاثة اسابيع اخرى يعاني فيها من تحطم المراكب في الطريق الى انطاكية ، وذلك بسبب تعطل وتخرب مراكبه ، ولكن بمشيئة الرب لم يفرق اي منها (٢١٣) مع ان الخسائر التي تكبدها كانت فاحشة للغاية ، كذلك كانت المخاطر التي احاقت به ، لكن يا ابانا سوكر عليك ان ترتاح الى حقيقة انه ظل آمنا ، ذلك انه كان من صالحه ان يعاني بهذا القدر ، لأن من المعروف عنه انه حصيف ومتبصر بعواقب الامور في وقت الشدة ، كما انه يتحمل الخسارة بقلب مرتاح وحبور ، ثم إنه كان قد تحمل انواع السعادة بحكمة

وصمود ، وكان الشيء الوحيد الذي يحز في نفسه هو سوء حظ رعاياه الذين كان يوجه عنايته لهم على الدوام قدر المستطاع ، فمن الناحية النظرية لم يكن الملك قد ولد لذاته بل لصالح الآخرين ، وعلى الملك الا يكون ورعا فحسب ، بل الا يخشى الفقر ابدا ، ولكي يعيش مثل شرفه كان لا يابه بالحصافة التي يجب ان يتمتع بها الملك عادة ، وكان يتحمل برد الليالي وحر الايام ، بينما كان يتناوب على حماية المقدمة والمؤخرة ، وفي خضم الصعوبات العديدة التي كان يمر بها كان مرد الحفاظ على سلامته لا يعود الى سبب غير سبب تمسكه بديانته ، لأنه كان دائما يأخذ القربان قبل ان يذهب لهاجمة قوى العدو ، وعند عودته يطلب قرع اجراس الكنيسة في المساء دعوة للقداس ، وهكذا كان دائما بحكمته يجعل الرب هو الالف والياء البداية والنهاية» ، (٢١٤) وكامير كريم ، وفارس مقدم ، وشاب حيوي ، وشيخ متعقل كان قد اعد نفسه للتأقلم مع مختلف الأوضاع ، والظروف والطاقت ، وبتكامله نال حب الناس ، وبورعه حظي بحب الرب له.



من

تاريخ وليم رئيس اساقفة صـور
(تاريخ الاعمال المنجزة فيما وراء البحار)

١٨ - تحرك الناس في الغرب . كونراد امبراطور الرومان ولويس ملك فرنسا ينطلقان نحو الشرق ومعهما عدد كبير من الأمراء بغية مساعدة المسيحيين فيه .

عندما تم الاستيلاء على مدينة الرها ، كما سبق لي ورويت أخبار تلك الحادثة المشؤومة ، انتقل الخبر إلى الغرب ، وعم انتشاره فيها ، وسرت هناك اشاعات فيها أن أبناء الضلال من التركمان لم يكتفوا بالاستيلاء على مدينة الرها ، لكنهم شرعوا في تدمير بقية المدن والقصور والحصون العائدة إلى شعبنا ، وهم يسيطرون الآن سيطرة كاملة على الشرق ، وهكذا فإن رعايا المسيح يعانون الآن من محن شديدة بسبب الحروب المستمرة وأعمال الغارة المتكررة عليهم .

وانتشر الرسل في كل مكان يحملون هذه الأخبار إلى جميع الأمم والشعوب ، وزار هؤلاء الرسل البلدان التي عمها التراخي واللامبالاة لفترات طويلة ، ونشدوا مساعدتها وحرصوها على الانتقام لهذه الجرائم الكبرى ، وقد روي ، بأن البابا يوجينوس الثالث ، الذي كان رجلا يخشى الرب ، ويحمل - كأب - مشاعر صادقة تجاه أبنائه في الشرق ، وكان يفيض بمشاعر الالتزام والتعاطف معهم ، قد بعث بالعديد من رجال الدين للطواف على مناطق الغرب ، وحيث أن هؤلاء كانوا من أصحاب البراعة ، وذوي المقدرة ، في القول والعمل ، فقد طلب منهم : إخبار الأمراء والشعوب والقبائل والأمم في كل مكان ، بأحوال إخوانهم في المشرق ، وعن أوضاعهم التي لا تحتمل ، بغية إثارتهم وندبهم للتطوع ، حتى يتم الانتقام لهذه الجرائم ، وكان بين هؤلاء المبعوثين برنارد راعي دير كليرفو ، وكان برنارد هذا ممن استحق

الخلود : لتقاه ، ولحياته النبيلة ، التي ضرب بها مثلاً رائعا للجميع في جميع المجالات ، ووقع الاختيار عليه ليترأس مهام هذه البعثة إرضاء للرب ، وقام بتنفيذ المهام الملقاة على عاتقه بكل نشاط واصرار ، مع أنه كان ضعيف الجسم ، متقدما بالسن ، ويعيش في حالة صوم دائم ويقتات القليل القليل من الطعام .

وتنقل برنارد في الممالك والبلدان ، باندفاع رباني ، وبحماسة وغيرة ، وبشر بمملكة الرب دون كلل أو ملل ، وقصد أولى عظيم العناية لشرح ما نزل من الكوارث بشعب المشرق ، ولتبيان نوع العدو الذي يجهد في سبيل التحكم به والتنكيل ، وأوضح كيف آل المأل بمدن كانت في السابق مواطن للايمان ، مكرسة للعقيدة المسيحية ، فصارت الآن تعاني من آثام العبودية تحت سلطان الذين

نكلوا باسم المسيح ؛ ولقد شد إخواننا سكان هذه المدن بالأغلال والقيود ، واستهلكهم الجوع ، وعاشوا جميعا في سجن رهيب ، في حالة كلها قذارة ومرارة ، فهؤلاء الذين أبدى المسيح استعداداه للموت لانقاذهم ، يعيشون الآن بين التوسل والأغلال ، وحتى يتم تحرير هؤلاء الاخوان ، دعا برنارد الناس وحرصهم ، وحرك عواطفهم ، وأثار شجونهم ، وانتدبهم لمحو هذه الجرائم ، وقد وعد بمعونة سرمدية ، وبثواب رباني لجميع الذين سيتطوعون للقيام بهذا العمل المقدس .

ونشر برنارد هذه الرسالة بكل حماسة وتقوى بين الامم والامارات والممالك ، فريح التأييد المباشر من قبل الكبير والصغير ، وتجاوب الجميع مباشرة مع دعوته ، وأخذوا على أنفسهم العهد بالتوجه نحو القدس ، وعلقوا على عواتقهم شارة الصليب ، وأعدوا العدة للسفر ، ولم يقتصر اقناعه وتأثيره على سواد العامة ، بل شمل الكبار من الحكام مع عظماء رجالات الممالك ، ولقد تبنى كلماته أعظم ملوك الأرض وأوسعهم شرة ، يتقدمهم كونراد امبراطور

الرومان ، ولويس ملك الفرنجة مع عدد كبير من أمراء الممالك ،
وذلك بكل حرارة واندفاع شديدين ، ووضعوا على عواتقهم علامة
الصليب ، بكل تقوى وخشوع دلالة على أنهم سيقومون بواجب الحج
(١) .

١٩ - الامبراطور ينطلق أولا على رأس جيشه
ويصل إلى القسطنطينية . سلطان قوته ينصب له
الكمائن :

قام الملك باتخاذ جميع الترتيبات الضرورية من أجل ادارة
مملكتيهما أثناء غيابهما ، وضما إلى صفوفهما جميع الذين أخذوا
على أنفسهم - عن طواعية - عهد الانقاذ ، وعندما انتهت جميع
الترتيبات الضرورية للزحف ، بشكل يليق بالمكانة الملكية ، انطلقوا
بتيسير الرب لاداء حجهم في شهر أيار ، انطلقوا ضمن اشارات غير
سعيدة ، ونذر شريرة ، ذلك أنهم شرعوا في الزحف ، كما لو أنهم
ضد ارادة الرب الغاضب عليهم ، ولذنوب بني البشر لم ينجزوا في
حجهم هذا كله ما يرضي الرب ، وفوق ذلك حولوا أحوال الذين ذهبوا
لانقاذهم وقلبوها من سوء إلى أسوأ (٢) .

وقرر القادة الزحف كل على انفراد ، على أن يقود كل منهم جيشه
في اتجاه يختاره ، وبذلك كان يتم تجنب قيام الخلافات بين الناس ،
كما أنه بهذه الطريقة كان يمكن للفرق الصغيرة أن يؤمن كل منها
لنفسه الطعام وبقية ضرورات الحياة ، مع أعلاف الخيول
والحيوانات بسهولة وبكميات كبيرة .

واجتازوا بافاريا ، وعبروا نهر الدانوب العظيم عند راستبون ،
وانحدروا إلى أراضي النمسا ، والنهر على يسارهم ، ثم دخلوا
أراضي هنغاريا ، حيث عوملوا معاملة طيبة من قبل ملك تلك

البلاد ، وبعدها مروا مجتازين أراضي تلك المملكة ، وسلسلتي
أبانونيا ، مضوا من خلال مقاطعات بلغاريا وهي : موشيا وداشيا
المتوسطية ، مخلفين داشيا الثانية على اليسار ، وقد وصلوا إلى
ثراس (تراقية) بعدما مروا بكل من المدينتين الشهيرتين
فيليبوبولس وأدريانوبل (أدرنه) ووصلوا أخيرا إلى العاصمة
الملكية (٣) .

وقد استقبلوا استقبالا لائقا من مانويل امبراطور القسطنطينية ،
ونالوا قسطا من الراحة لبضعة أيام ، وحصلوا على جميع اللوازم
والأشياء الضرورية لراحة الجيش ومتعبه بعد رحلة كلها
متاعب (٤) ، ثم عبر الجميع مضيق البوسفور ، الذي تمتد مياهه
حتى القسطنطينية ، وهو أيضا يفصل ما بين كل من آسيا وأوربا ،
ودخلوا إلى بيتينيا ، وهي أول مناطق آسية التي يصلها الانسان ،
وعسكرت جميع الجيوش في قرية خلقذون ، حيث بدت المدينة التي
كانوا قد غادروها لتوهم على مرأى منهم لقربها ، وفي هذه المدينة
القديمة سبق أن عقد المجمع المسكوني المقدس الرابع الذي شهده
ستمائة وستة وثلاثون من آباء الكنيسة ، وذلك في أيام الامبراطور
مارتن والبابا ليون ، وذلك بغية التصدي لهرطقة يوتيش الراهب
الذي أعلن أنه ليس لمولانا المسيح إلا طبيعة واحدة (٥) .

ولقد عرف سلطان قونيه قبل مدة مديدة بأخبار زحف هؤلاء الأمراء
الكبار ، وأدرك مدى المخاطر القادمة نحوه ، ولهذا طلب المساعدة
من أقصى جوانب المشرق ، ونظرا لخشيته الشديدة اتخذ كافة
الاحتياطات وتسليح ضد الخطر المشرف عليه ، والنابع من وجود
أعداء كثر حوله ، وحصن مدنه ورمم قلاعها وشحنها واستعان
بجميع جيرانه ، وانتظر بتوجس ويقظة شديدة دنو العدو الذي وصل
إلى مشارف دياره ، والذي كان خطره يقترب يوما تلو الآخر ، حيث
جاء يريد تدمير رعيته وبلادها ، وسرت الاشاعات برصول حشود لم
ير مثلها ، لا في عددها ولا عددها ، حتى قيل بأن عدد الفرسان فقط

غطى وجه الأرض إلى حد أن أكبر الأنهار لا يكاد تكفي مياهه لشرب هذه الحشود ، وأن أعظم الأراضي خصبا لا تكفي لامدادهم بالمؤن ، وعلى الرغم مما حملته هذه الأقاويل من المبالغات ، فإن حجج الحقيقة في حد ذاتها ، يلقي الرعب في قلوب أعظم الزعماء والقادة ممن لم يكونوا يدينون بالنصرانية ، ذلك أنه اعتمادا على الروايات الرسمية لعدد من الرجال الذين شاركوا في هذه الحملة ، كان في جيش الامبراطورية وحده قرابة السبعين ألفا من الفرسان الدارعين ، كل ذلك إلى جانب الرجالة والنساء والأطفال والخيالة الخفاف ، وبالنسبة لجيش ملك فرنسا ، فقد قدر وجود سبعين ألفا من الدارعين الشجعان فيه أيضا ، وذلك بالإضافة إلى الرجالة ، (٦) ولو ان الرب كان راضيا عنهم ، فمنحهم رحمته ومساعدته ، ولم يحرمهم من عونه ، لاشك انهم كانوا سيتمكثون ليس من اخضاع السلطان فحسب ، بل اخضاع جميع بلدان المشرق ، الى سلطان النصرانية ، لكن الرب بحكمته ، ومكثون علمه واحكامه ، رفض خدماته ولم يعتبرها خدمات مقبولة ، لربما لأنها قدمت بأيد غير تقية.

٢٠ - بعد عبور البوسفور قيد جيش الامبراطور كونراد إلى الضياع بخداع من الاغريق الذين استجروه إلى مواضع خطيرة جدا .

وما ان عبرت جميع الفرق البوسفور ، حتى قام الامبراطور كونراد ، ومعه كبار نبلائه وحاشيته بتوبيع الامبراطور مانويل ، وعبروا البحر ، وأمرت الفرق ، وقد غدا كل منها تحت إمرة قائدها الخاص ، بالزحف ، فغادرت غالاشيا بافلوغوينا ، ومقاطعتي بونتوس على اليسار وفريجيا وليديا وأسية الصغرى على اليمين ،

رسار كونراد مباشرة عبر قلب بثينيا إلى نيقوميديا (إزميت) حاضرة تلك العيار ، واجتاز مدينة نيقية ، وهي المدينة التي عقد فيها أيام الامبراطور قسطنطين مجمع الثلاثمائة عشر من آباء الكنيسة المقدسين للتصدي للعقيدة الشريفة التي بشر بها أريوس السيء الذكر (٧) ، ومن هنا اتبع الجيش وهو على تعبئة كاملة ، اقصر الطرق إلى ليقانيا التي مركزها مدينة قونية .

وحشد السلطان في هذا المكان عددا كبيرا من الرجال واعداد كبيرة من التركمان ، من المناطق المجاورة ، وكان ينتظر الوقت المناسب ، والمكان المواتم ليهاجم النصارى وهم يحاولون المرور وبذلك يمنع تقدمهم ، وكان قد تمكن عن طريق الرشوة والتحالف من اثارة جميع الملوك والقادة والمقدمين من مختلف المراتب ، من اقاصي المشرق وادانيه ، ضد شعبنا ، وقد بين لهم برسائله المتواصلة ، أنه لو سمح لمثل هذا الحشد الهائل من الرجال المسلحين بالمرور خلال بلاده دونما اعتراض ، فانهم سيخضعون الشرق جميعه لحكمهم بقوة السلاح ، واستجاب لندائه عدد كبير من الامم بسرعة من : ارمينيا (العليا والدنيا) وكبادوقية ، وزوريا ، وميبيا وبارثيا

(اعالي الجزيرة) وهكذا تجمعت الحشود الكبيرة ، وقد امانل السلطان بمساعدة هذه الامم له انه سيتمكن من المقاومة بقوات معادلة لتلك الحشود الجبارة ، التي قبل انها اشرفت على الذو منه .

وكان كونراد قد طلب من الامبراطور مانويل قبل ان يغادر القسطنطينية تزويده ببعض الادلاء الذين يعرفون المنطقة معرفة جيدة ، والذين هم في الوقت نفسه خبراء بالمناطق المجاورة ، ومهما يكن الحال فقد برهن هؤلاء انهم ليسوا اهلا للثقة ، فلقد افترض ان

يقوموا بقيادة الجيوش بكل امانة وثقة حتى لاتتعرض العساكر المهتدية بهم للمخاطر والمصاعب او قصور في الامدادات وهم سائون ، لكن ما ان شرع هؤلاء الادلاء في قيادة الجيش داخل اراضم الاعداء حتى اخبروا قائده بان عليهم الاستفادة من الطريق القصير الذي يقودهم عبر بلاد غير محتلة من العدو ، وعلى هذا عليهم حمل كميات من المؤن تكفي لعدة ايام فقط ، ووعدهم انهم خلال ايام معدودة سيصلون الى مدينة قونية الواسعة الشهرة ، فهناك سيجدون انفسهم وسط اخصب البلاد والمليئة بجميع انواع الامدادات ، وتبعاً لهذه التعليمات ، وتنفيذا لما قضت به ، حمل النصارى المؤن على ظهور الحيوانات والعربات ، وجميع وسائل النقل التي كانت بحوزتهم ، ذلك انهم وثقوا بادلائهم ، وتبعوهم بكل بساطة وثقة .

لكن الادلاء ، وقد جبلوا على طباع الخسة التي عرف بها العرق الاغريقي ، مع كراهيتهم المعتادة للنصارى تصرفوا بخيانة ، وذلك اما بناء على اوامر تلقوها مسبقاً من سيدهم ، او لان التركمان رشوهم ، وهكذا قادوا الفرق العسكرية عبر طرق غير مطروقة ، واسترجعوا الى اماكن وفرت للعدو فرصاً مناسبة لقتال وهزيمة هؤلاء الناس الذين غدوا بلا حول ولاطول (٨)

٢١ - الادلاء الذين قدمهم الامبراطور الاغريقي لارشاد جيش كونراد الامبراطور الالماني يتخلون عنه بكل خبث ، تاركين عساكره معرضين لمخاطر عظيمة .

عندما مرت الايام المحددة ، ولم تصل الحملة الى هدفها الذي طال شوقها اليه ، امر الامبراطور باحضار الادلاء الاغريق امامه ،

وشرع بالتحقيق معهم بحضور اعيان جيشه ، فسألهم : لماذا سار الجيش وما زال مستمرا في المسير مدة اطول مما حدد له في البداية ، ومع ذلك لم يصل الى اهدافه - وكما هي عاداتهم - لجا الادلاء الى الخداع واكدوا له بشكل قاطع ، انه بمشيئة الرب ستكون جميع الفرق في قونية في مدة ايام ثلاثة ، وكان الامبراطور رجلا بسيطا لايعرف المكر ، لذلك صدق بسرعة اقوالهم واجابهم بانه سيتحمل عناء الايام الثلاثة المقبلة ايضا ، ذلك انه وثق بصدق وعودهم ، وعندما حل المساء اقيم المعسكر حسبما جرت العادة ، لكن بينما كان الناس نياما ، بعد عناء يومهم ، هرب الادلاء الخونة في ظلام الليل ، وتركوا الناس الذين وضعوا ثقتهم بهم ، وامنوا بعنايتهم بهم ، تركوهم بلا ادلاء ، وفي صباح اليوم التالي ، حل وقت استئناف المسير ، دون ان يمكن العثور على الادلاء الذين كانوا في العادة يتقدمون الصفوف ، وبعد لأي حمل الى الامبراطور خبر هؤلاء الخونة وفرارهم وعلم بهذا قادة الجيش ، وطار خبر خيانتهم ، وانتشر بين الجميع .

وزيادة على هذا ، فان هؤلاء الابالسة ، اسرعوا نحو جيش ملك فرنسا الذي كان بالجوار ، وادعوا كذبا بان الامبراطور ، الذي كان قد سافر بقيادتهم من قبل قد نال نصرا مؤزرا على الاعداء ، وانه استولى على قونية بقوة السلاح ، وانه دمرها دمارا كاملا ، ولقد اضافوا بهذا الكذب الى جرائمهم جرائم اعظم .

ومن الواضح انهم اقدموا على هذا الادعاء : اما لاقناع الملك لاتباع الطريق نفسها حتى يواجه المخاطر نفسها ، او ربما لجعله يعتقد بان كونراد قد حالفه النجاح الكامل ، وبذلك يمتنع عن التفكير بالاسراع نحوه لتقديم العون لاخوانهم الذين تعرضوا للمخاطر ، ولربما اخترعوا هذه الحكاية ليجنبوا انفسهم نيل العقاب ، لانهم لو اخبروا ان الجيش قد هلك ، فسيلقي القبض عليهم ، ويعاملون بمثابة خونة ، حيث ان الناس اندفعوا نحو حتفهم بسبب شرورهم ،

ومهما كانت حقيقة نواياهم ، فانه من المؤكد بان خيانتهم ادت الى التخلي عن الجيش ودفعه للوقوع في مخالب الموت .

وما ان ادرك الامبراطور بان الجيش قد بات بلا ادلاء حتى دعا الى اجتماع لجميع القادة لمناقشة القضية واتخاذ قرار حول السبل التي سياخذون بها ، وظهر على الفور اجماع على عدم الاتفاق والوفاق ، فقد رأى بعضهم انه ينبغي على الجميع العودة من حيث اتوا ، بينما رأى بعضهم الاخر انه ينبغي عليهم متابعة الطريق ،

وينطبق في هذه الازمة قوله : يسكب هواننا على رؤساء ويضلهم في تيه بلا طريق (٩) .

وبينما هم في حالة الشك هذه مضطربين بشأن المنطقة ، قلقين حول انعدام المؤن ، لان اعلاف الخيول وحيوانات الظهر مع جميع انواع المؤن والاطعمة للجيش كانت قد نفذت (سرت اقاويل بان جيش العدو ، الذي يحوي حشودا كبيرة من التركمان ، بات على مقربة منهم ، ولم يلبث ان ظهرت حقيقة ذلك ، وهكذا اصبح النصارى في ارض جرداء قاحلة ، بعيدين عن الاراضي المزروعة ، فلقد قيدوا عن عمد الى هناك كما قلنا من قبل ، وذلك من قبل ادلائهم الخونة ، فلقد كان من المتوقع عليهم السفر عبر ليكانيا ، التي ودعوها عن يمينهم ، فلوركبوا هذا الطريق ، لمروا با راض مزروعة فيها جميع انواع المؤن ، وكانوا وصلوا نحو اهدافهم بوقت اقل طولا ، وعوضا عن ذلك قادهم الاغريق يسارا ، واجبروا الجيش كله على الانحراف نحو فيافي كبادوقيا بعيدا عن قونية .

وراجت اقاويل يبدو انها كانت اقرب الى الحقيقة منها الى الخيال ، منها ان عملية التيه الخيانية هذه قد ابدعت بمعرفة من الامبراطور الاغريقي ، وبامر منه ، ذلك انه حسد النصارى ، وغار من نجاحاتهم ، حيث انه من المعروف ان الاغريق نظروا دائما بريية

وتوجس (ومازالوا يفعلون) نحو ازدياد قوة امم الغرب عامة ، ونحو الامة الالمانية خاصة ، فقد اعتبروها امة منافسة لامبراطوريتهم ، بسبب ان ملك الالمان دعا نفسه : امبراطور الرومان ، مما كان يعني انتقاما كبيرا من سمعة امبراطورهم ، الذين هم انفسهم يدعونه وحده امبراطور ، ولا يوجد امبراطور غيره (١٠)

٢٢ - التركمان ينقضون بهجوم صاعق على الحشود الالمانية . الفرق الالمانية يحل بها الدمار لكن الامبراطور ينجو .

في تلك الاونة كان جيش الامبراطور يعاني من : الجوع ، ومن جهله بالمنطقة ، ومن عزلته المزداة ، ومن مصاعب الطرق ، ومن قلة الخيول ، ومن حمل العتاد ، واثناء ذلك كان امراء التركمان وقادتهم على مختلف مراتبهم يعون هذه الحالة تمام الوعي ويعرفونها بيقين ، لهذا حشدوا قواتهم ، وانقضوا بها في هجوم مباغت على المعسكر المسيحي ، وقد اوقع هذا الهجوم غير المتوقع الفرق الالمانية في فوضى كاملة ذلك انه لم يسبق لهم ان راوا اي شيء من هذا القبيل ، فلقد كمنت قوة من الجند التركمان في خيولهم السريعة التي لم تكن تعاني من جوع او عطش ، وفي عتادهم الخفيف ، المؤلف من قوس ونشاب ، واحاطوا بالمعسكر واصواتهم تتعالى ، وكما جرت عادتهم انقضوا بعنف على عساكرنا الذين اعاققتهم دروعهم الثقيلة ، فلقد كان النصارى يتفوقون على العدو قوة ومهارة في القتال ، انما كانوا مثقلين بدروعهم وسوابغهم وترستهم ، لهذا لم يستطيعوا منازلة التركمان ، كما انه لم يكن بمقدورهم مطاردتهم ابعد من حدود المعسكر ، ذلك ان خيولهم كانت قد انهكتها الجوع ، وهدما طول السفر ، لذلك كانت عاجزة تماما عن الركض كرا وفرا ،

واما التركمان فقد كانوا على عكس ذلك ، حملوا حملات جماعية ، واطلقوا نحوهم من مسافات مناسبة ، وابلا من السهام ، سقطت كالمطر المنهمر على الخيول والخيالة وسببت الموت والجراح بشكل شامل ، وعندما حاول النصارى احيانا مطاردتهم ، استدار التركمان ، وفروا على خيولهم السريعة ، وبذلك نجوا عن سيوف اعدائهم ، وجرى تطويق جيشنا من جميع الجهات ، وصار في خطر مميت بسبب وابل السهام والنبال ، ولم تتوفر لديه الفرصة للانتقام او الاشتباك بالعدو في قتال قريب ، كما انه لم يستطع امسك العدو وحصره ، فكلما حاول القيام بهجوم مضاد ، تفرق التركمان وبددوا جهودهم ، وركضوا في مختلف الاتجاهات ، وعندما كان النصارى يعودون الى مخيمهم ، كان التركمان يعاودون رص صفوفهم ، ويقومون ثانية بتطويق عساكرنا وقتالهم بضراوة اشد ، وكانما كانوا يحاصرون بلدة من البلدان .

وهكذا ، وبإرادة الرب ومشيئته الخفية الحقة ، نجد ان شجاعة هؤلاء الامراء الكبار من النصارى ، الذين بدت قوتهم وشجاعتهم وكأنها لاتقهر ، واعدادهم لاتضاهى ، قد انهاروا جميعا تحت ضربات لايمكن وصفها بانها كانت اكثر من لينة حربيا ، ولم يبق مرثيا من شجاعتهم السابقة شيء وبقي من اعدادهم الكبيرة قوات يسيرة فقط ، فمن بين السبعين الفا من الفرسان الدارعين ومما لا يحصى من الرجالة الذين صحبوهم ، نجا عشرهم او اقل من ذلك ، وذلك اعتمادا على روايات الذين كانوا ضمن الحملة ومن رجالها (١١) : فلقد هلك بعضهم بفعل الجوع ، وقطع آخرون بالسيوف ، وسقط عدد كبير من الاسرى بيد العدو ، وعلى كل حال نجا الامبراطور مع عدد من نبلائه ، وتمكن بعد عدة ايام ، ومصاعب جمة ، من الوصول الى احواز مدينة نيقية مع الباقين من اتباعه .

وتراجع التركمان الى حصونهم بعد أن أثقلوا بغنائم لا تحصى وخيول وأسلحة لا يمكن حصرها وبما أنهم كانوا على معرفة تامة

بالمنطقة ، فإنهم انتظروا بلهفة وصول الملك الفرنسي ، لأنه كما جاء في بعض الأقاويل كان موجودا في أطراف تلك المنطقة ، وبما أنهم دمروا قوات الامبراطور التي كانت أعظم من سواها ، فقد أملوا بأنه سيكون من السهل عليهم ايقاع الهزيمة بجيش ملك فرنسا ، وكان الذي حدث هو ما توقعوا حدوثه تماما .

ولم يشارك سلطان قونية في هذه الأحداث العظمى ، بل تمكن - يعون من الرب - واحد من أمرائه التركمان اسمه براموس (؟) وكان قائدا لقوات السلطان ، تمكن من إنجاز هذا النصر الرائع ، وقد وقعت هذه الواقعة في شهر تشرين الثاني لسنة ١١٤٦ لتجسيد الرب .

٢٣ - ملك فرنسا يعبر البوسفور ، ويصل على رأس حشوده إلى نيقية في منطقة بيثينيا . الملكان يتباحثان مع بعضهما . عودة الامبراطور كونراد إلى القسطنطينية .

ووصل في الوقت نفسه ملك فرنسا مع جيشه إلى القسطنطينية بعد أن اتبع الطريق نفسها تقريبا ، ومكث هناك لمدة وجيزة ، وقد عقد عدة لقاءات خاصة مع الامبراطور ، الذي أظهر نحوه تقديرا واحتراما كبيرا ، ولدى مغادرته أتحفه بعدد كبير من الهدايا ، كما تمت معاملة أعيان حاشيته معاملة طيبة ، وفي بقعة معينة ، قائمة بين العاصمة الملكية والبحر الأسود (المسافة بينهما ثلاثون ميلا) قام بعبور البوسفور ، ففي تلك البقعة كان البوسفور في أضيق أماكنه ، عرضه حوالي ميل واحد ، ثم سار حول خليج نيقوميديا ، الذي اكتسب اسمه لجاورته لمدينة نيقوميديا حاضرة منطقة بيثينيا ، ويعد هذا الخليج - في الحقيقة - جزءا من البوسفور ، وفي قرية نيقية ، غير البعيدة عن المدينة نفسها اتخذ الملك

الفرنسي معسكرا له ريثما يقرر الطريق الذي سيركبه ، وقام باستقصاء دقيق حول امبراطور الالمان الذي سار امامه ، وقد علم هناك بان جيشا الامبراطور قد دمر ، لكن الامبراطور نفسه نجا ، وهو الان شريد ضائع ، نجا بروحه مع عدد قليل من نبلائه ، وقد ظن الملك في البداية ان هذا الخبر مجرد اشاعة لا اساس لها من الصحة ، انما مع مرور الوقت توصل الى الخبر اليقين ، ذلك ان فريديريك دوق سوابيا (١٢) وصل الى معسكر الامبراطور ، حاملا معه اوسع التفاصيل حول هذه الكارثة ، التي كانت المعلومات حولها حتى هذه الساعة غير واضحة ، وأشبه بالاشاعة التي لا يمكن الوثوق بها ، وكان هذا الدوق شابا في مقتبل العمر ، يتمتع بصفات حميدة ، وهو الذي سيخلف في المستقبل عمه كونراد ، ويصبح حاكما للامبراطورية الرومانية التي يحكمها الآن بكل نشاط ونجاح ، وكان قد جاء لتوجيه الدعوة للملك ليجتمع بالامبراطور حتى يتباحثا معا - وإن جاء ذلك متأخرا - حول الطريق التي ينبغي السير عليها ، ولدى سماع الجيش بخبر هذه المصيبة التي نزلت بالامبراطور ، وبالدمار والشرور التي لحقت بإخوانهم عمت صفوفه موجة من الغضب والأسى ، وتأثر الملك كثيرا بما رواه له الدوق ، وبعدها تشاور مع أصحابه ، قام بصحبة الدوق ، وبرفقة عدد من نبلائه بالتوجه نحو معسكر الامبراطور الذي لم يكن بعيدا ، بغية التشاور معه .

وبعدما تبادل الملكان التحيات المعتادة ، وتعانقا ، وقبلا بعضهما بعضا ، اجتمعا بشكل ودي ، وتباحثا حتى اتفقا على الاستمرار في تنفيذ خططهما ، وعلى دمج قواتهما للزحف معا ، وحدث أن كثيرا من رجال الطرفين ، خاصة من بين الالمان ، خرقوا موثيقهم ، وتخلوا عن عهودهم ، وعادوا نحو القسطنطينية وذلك بعدما استنفدوا ما كان معهم من مال ، وبعدهما واجهوا ما واجهوه من مصاعب جمّة على الطريق ، مما بعث الهلع في قلوبهم .

وقرر الملكان بعدما استشارا قادة الجيشين ، التخلي عن الطريق الواقع على اليسار ، وهو الذي سبق للامبراطور أن ركبه ، ووجهوا صفوفهم باتجاه أسية الصغرى ، وكان الآن على يمينهم بلدتا فريجيا ، وخلفوا ورائهم بيثينيا ، وزحفوا الآن عبر الطريق الممتدة على طول الساحل تاركين فيلادلفيا على يسارهم ، ووصلوا أولا إلى سميرنا (أزمير) ، ومن هناك تابعوا السير إلى افسوس ، عاصمة أسية الصغرى ، وشهرت هذه المدينة لكونها قد سبق أن عاش فيها الرسول يوحنا ، وفيها بشر ودفن ، وفي افسوس أمر الامبراطور فرقه المتبقية بالعودة برا ، بينما ركب هو البحر وعاد إلى القسطنطينية ، هذا وإن الأسباب لعمله هذا غير معروفة ، ولربما كان ذلك لحزنه وأسفه على الأعداد الكبيرة التي أضاعها ، أو لربما بسبب انه لم يكن في مقدوره تحمل رعونة الفرنسيين (١٣) ، وقد استقبله الامبراطور استقبالا اعظم من الاستقبال السابق ، ومكث في القسطنطينية مع نبلائه حتى مطلع الربيع التالي ، وكانت القرابة بين الملكين وثيقة ، ذلك أن زوجتيهما كانتا أختين ، فقد كانتا ابنتي بيرنجر الكبير كونت سولزباش الذي كان يعد واحدا من كبار الأمراء وأكثرهم قوة في المملكة الألمانية (١٤) ، ولهذا اظهر الامبراطور نحوه رعاية كبيرة ، وبناء على رغبة من الامبراطورة أتحفه بعدد كبير من الهدايا ، وخص أشرافه بجزيل العطاء .

٢٤ - ملك فرنسا يتابع مسيره نحو افسوس بطريق مغايرة . هناك يتوفى غوي أمير بونثيو . على الرغم من جهود العدو تمكن الفرنجة من عبور نهر مياندر .

وانهمك في الوقت نفسه ملك الفرنجة مع نبلائه في الاعدادات لاستئناف الزحف ، وحاول أثناء وجوده في افسوس اعطاء جيشه الفرصة لنيل قسط من الراحة واسترداد عافيته ، وتوفي أثناء ذلك غوي كونت بونثيو ، وكان متميزا بين أقرانه من النبلاء لبراعته

العسكرية ولقوته ، وجاءت وفاته بعد مرض ألم به ، وقد دفن في صحن كنيسة افسوس ، وسار وبرفقته جميع جيشه بكل ما أمكنه من سرعة متجها نحو الشرق ، ووصل بعد مسيرة عدة أيام مخاضة نهر مياندر - المحبوب من البجع - وهذا النهر هو الذي كتب عنه صاحبنا ناسو في الهيرودس :

عندما يأتي داعي المنية استلق على العشب المبلل
فالبجع الأبيض يغني على مخاضات نهر مياندر

وأقام الملك معسكره على ضفتي النهر بين المروج الخضراء ، وحدث هنا لأول مرة أن الفرنجة الذين اشتاقوا طويلا لرؤية أعدائهم ، قد استجيب لهم ، فما أن حاول النصارى الوصول إلى النهر حتى ظهر أمامهم على الضفة المقابلة عدد كبير من التركمان ومنعواهم من استخدام الماء ، وبعد لأي وجدوا المخاضة ، فتمكنوا ، برغم جميع جهود العدو ، من شق طريقهم ، وعبروا النهر ، وانقضوا على التركمان ، فقتلوا عددا كبيرا منهم ، وأسروا أعدادا كبيرة أيضا ، مما أجبر الباقين على الفرار ، واستولى المنتصرون الفرنجة في الحال على معسكر التركمان ، الذي كان ممتلئا بجميع أنواع الغنائم الثمينة والمؤن من كل لون ، واستطاعوا بفضل ما بذلوه من جهد أن يجعلوا أنفسهم سادة الضفة الثانية للنهر ، ولقد امتلأ النصارى سرورا بنصرهم هذا ، وبما كسبوه من غنائم ، وأمضوا ليلة هادئة ، وعند الفجر شرعوا في الاستعداد لاستئناف زحفهم .

ثم ساروا من هناك إلى لوديقيا ، التي كانت مدينة قائمة في تلك المنطقة ، ومن هناك زدوا أنفسهم بما يكفيهم من مؤن لعدة أيام كما جرت عاداتهم ، ثم استأنفوا زحفهم بنية واحدة .